شرارة آذار

دعوة للتفكير بصوت مرتفع

INFOSHRARA@GMAIL.COM

العدد٧٨ ٢٠١٣/٨/١١-٨/١٧

معابر الموت

سوريا.. نحو عقد جديد

مهن بديلة

خيار وفقوس

أكثر من مجرد موت

العيد زمن الكوليرا

معابر الموت

ـــــــ صبر درويش

إلى الناجين من معابر الموت..

كل شيء في المدن المحررة يبدو صعباً وقاسياً ومعقداً، حتى أن المرء يحتاج إلى دعوات أصدقائه للقيام بأبسط المهام، كأن يخرج لشراء شيء ما من أحد البقاليات القريبة!. ففي ظل القصف المستمر على هذه المدن، لا يستطيع الفرد التنبؤ بمكان سقوط القذيفة، أو من أين ممكن أن تأتي الشظايا؛ هنا كل شيء يخضع للمصادفة حتى الحياة ذاتها.

معابر الموت

في ظل الحصار الخانق الذي تفرضه قوات الأسد على مدن وبلدات ريف دمشق، يصبح التنقل بين بلدة وأخرى مخاطرة تحسب لصاحبها، هنا حيث الموت يتربص في كل منعطف، ويزرع الرعب في قلوب العابرين.

يربط بين مدينة زملكا وحي جوبر نفق لا يتجاوز طوله ٥٠م، بيد أن هذه الأمتار القليلة كافية كي تجعل من الأمر مخاطرة، حيث يشكل عبورها بنجاح شيء أشبه بولادة جديدة. يطلق سكان المنطقة على هذا النفق اسم "العبارة" وهي عبارة عن نفق منخفض يمر من أسفل المتحلق الجنوبي، غالباً ما يستخدمه العابرون للتنقل بين زملكا وجوبر، وذلك خوفاً من قناصة نظام الأسد المرابطين على مقربة من المكان؛ تشكل الأمتار العشرة الأولى التي تسبق دخول النفق الخطر الأكبر، حيث على المرء العبور بأقصى سرعة ممكنة، وكذلك الأمر عند الخروج من النفق، حيث يقوم جنود الأسد "بقنص" أي شيء يتحرك على مداخل النفق ومخارجه. في أغلب الأحيان تقع الإصابات هنا. في هذه الأمتار العشرة، يحدثنا أبو رامي وهو أحد الناشطين الاعلاميين في المنطقة عن تجربته مع هذه العبارة " يومياً يتوجب عليّ عبور النفق باتجاه زملكا، والعودة مساءً إلى جوبر، مع الوقت وكثرة التكرار اعتدت هذه المخاطرة، حتى أنني لم أعد أحسب لها حساباً، ولكن في أحد الأيام كنت مضطراً للعبور ليلاً باتجاه زملكا، وما إن وضعت قدمي خارج العبارة، حتى قامت قوات الأسد بإطلاق النار باتجاهي، تعثرت ووقعت أرضاً وتأذى كاحلي الذي لم يشفى حتى الآن، كانت لحظات من الرعب التي لا يشبهها شيء".

لم ينتهي رعب العبارة وذلك على الرغم من تمكن الثوار من تحرير جزء كبير من المتحلق الجنوبي، حيث استعاضت قوات الأسد القناصين بمدافع الهاون والدبابات، فمن على بعد كيلو مترات تقوم قوات الأسد بتوجيه نيرانها باتجاه العبارة، التي يشير محيطها المليء بالركام والسيارات المحترقة، إلى نجاح قوات الأسد في تحويل العبارة إلى معبر حقيقي للموت.

التتمة في الصفحة ٢...

خارج الثورة.. مهنٌ بديلة بحثاً عن "لقمة خبز"

أيمن الشوفي

لم يتسجّلوا في خانة الثورة أو نقيضها بعد. لكن دفعهم إلى الحياة جعلهم يلجأون إليها من أضيق الأبواب خارج مشهد الموت والدم اليومي. يخسرون عملاً ليبحثوا عن آخر، وكأنهم أدمنوا التسكع في الزقاق الضيق للفرجة اليومية.

وحدها العاطفة العميقة التي يكنّها أسامة قطيف تجاه أهله جعلته يبقى إلى جوارهم، حتى بعد أن خسر عمله في شركة مختصة بالمعدات والأجهزة الطبية، بعدما توقفت كلياً عن العمل. اضطر بعد ذلك إلى استئجار مستودع في الحيّ الذي يقطنه، لبيع بعض المعدات والتجهيزات الطبية وتسويقها، حتى ولو انخفض دخله كثيراً عن السابق. "ارتفعت أسعار التجهيزات الطبية بين ٣ إلى ٤ أضعاف خلال العام الماضي. فجهاز قياس الضغط الصيني صار سعره ثلاثة آلاف ليرة سورية بدلاً من ألف ليرة فقط. وأكثر الأجهزة التي أبيعها هي كراسي العيادات السينية وأجهزة "الإيكو". لكن ما يقلق أسامة أكثر من سواد هو الطلب المتنامي على الأجهزة المستعملة، وبالتالي تدهور عمله الحالي.

ألبسة ومعارض

كثيرٌ من الحنين يمكن معاينته في عيني حسن الجوزي حين يتحدث عن عمله القديم لدى إحدى المجموعات المنظمة للمعارض والمؤتمرات. "كنت أعمل في قسم تطوير المبيعات، وكان العمل مجزياً بحيث كنت أنظم عقود شراء مساحات العرض، ومن ثم أتابع تحصيل الدفعات المالية.. كان دخلي ممتازاً مقارنة مع باقي المداخيل في سوريا. الأزمة دفعت الشركة إلى الانهيار المالي، وتخلت عنا من دون دفع أي تعويض". دفعت الضائقة المالية بحسن إلى إيجاد عمل في تسويق الألبسة الجاهزة، عملٍ يذكره بمدى يسر حاله في عمله السابق، الذي أمن له مقاماً اجتماعياً فقده اليوم.

سياحة وتبغ

سلوان قدور لا يعنيه كثيراً التفاوت الناجز بين عمله السابق لدى مكتب للسياحة والسفر في العاصمة، وبين عمله الحالي في بيع التبغ. "بعدما توقف المكتب، عملت مع أسرتي في قطف التبغ خلال الموسم الحالي ليصبح مصدرنا الوحيد للدخل. قررت حينها أن أبيع قسماً منه في دمشق". يتراوح سعر كيلوغرام التبغ اليوم بين ١٧٠٠ ليرة و٢٢٠٠ ليرة سورية، حسب جودته.

أثاث مستعمل

توقف عمل فادي نظام الدين في محله الصغير لبيع الإكسسوارات والهدايا بسبب ارتفاع الأسعار وقلة البضائع. نزوح الناس أيضاً من المنطقة التي يعيش بها اضطره للعمل في تجارة الأدوات المنزلية المستعملة. يشتريها بسعر بخس من بعض المصادر، أغلبيتها من اللجان الشعبية التي تسيطر على إحدى المناطق. "الآن أنا أشتري وأبيع كل شيء تقريباً، البرادات والغسالات والمراوح و...". أحياناً أشتري الأثاث من أشخاص رتّبوا سفرهم إلى خارج البلاد بسعر زهيد، ثم أبيعها في مناطق أخرى أكثر أماناً وبهامش ربح جيد".

مثلجات وعملة

إلى جانب عمله وراء ماكينة بيع المثلجات، يتاجر عبد الكريم الجنابي اليوم بالعملة. وعلى الرغم من حملات المداهمة الأمنية التي أغلقت مؤخراً عدداً من المحال غير القانونية واعتقلت أصحابها، يصرّ فادي على مواصلة تجارته المستجدة.

يضع صوراً للدولار واليورو والإسترليني إلى جانب بعض الرسومات على واجهة محله الصغير، الذي لا يعلن عن هويته الأساس سوى من خلال ماكينة واحدة لصنع المثلجات، يقاوم بها غلاء الأسعار المستجدة، فـ"سعر جرة الغاز يتجاوز ١٥٠٠ ل.س. كما أن سعر السكر ارتفع ضعفين أو أكثر، ومثله ارتفع سعر الحليب، وهذا زاد سعر الآيس كريم مئة في المئة عما كان عليه قبل سنة، وانخفضت المبيعات أيضاً بطبيعة الحال، ما دفعني للبحث عن عمل آخر".

أرقام البطالة

بحسب تقرير رسمي صادر عن "اتحاد عمال دمشق"، فإن خسائر الاقتصاد السوري تجاوزت ٧٠ مليار دولار، وأن نسبة التضخم تجاوزت الـ٥٠ في المئة. كما أن خسارة الاقتصاد السوري تقدر بنحو ١,٥ مليون فرصة عمل حتى نهاية العام ٢٠١٣، ما أثر على معيشة نحو ستة ملايين سوري.

كما أظهرت نتائج مسح قوة العمل الذي أعدّه المكتب المركزي للإحصاء في سوريا أن معدل البطالة وصل إلى ١٤,٩ في المئة في العام ٢٠١١، وسجلت بطالة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ سنة و٢٤ سنة أعلى معدل، بنسبة ٣٥,٨ في المئة.

تتمة:

معابر الموت

صبر درويش

لا يختلف الأمر كثيراً في النفق الذي يصل بين جوبر والقابون، بيد أن الأمر هنا أكثر تعقيداً ومخاطرة؛ للعبور من جوبر إلى القابون، يحتاج المرء إلى تأشيرة، تتولى أمر منحها إحدى الكتائب التابعة للجيش الحر في المنطقة، يسجل اسم الشخص على بطاقة يظهرها لحواجز الكتائب الأخرى، وهي محاولة لتنظيم حركة الدخول والخروج من المدينة.

تبدء الرحلة بالدخول في نفق لا يتجاوز طوله ٥٠م، بعدها على العابرين أن يركضوا بسرعة البرق لتجاوز مسافة ١٠٠م تقريباً تقع على مرمى من نيران الجيش النظامي، المنطقة هنا مدمرة بالكامل، ورائحة الحرائق تعبق في الجو، بينما السيارات المتفحمة فهي أشبه بمقبرة للآليات، ١٠٠م من الرعب، بعدها يدخل العابرون في نفق ثان، اطول من سابقه، حيث يمتد على طول مئات الأمتار تحت الأرض، لا يتجاوز عرض النفق ٧٠سم، وارتفاعه حوالي المتر ونصف، في الشتاء ترتفع المياه في النفق حتى الركبتين، بينما في الصيف فالأمر يصبح أكثر سهولة، يمر النفق هذا تحت الأوتوستراد الدولي، حيث يمكن للعابرين أن يسمعوا أصوات السيارات العابرة من فوقهم، وما إن يتجاوزوا الطريق الدولي حتى يخرج العابرون سالمين من الطرف الأخر من النفق، في رحلة تستغرق عادة حوالي النصف ساعة تحت الأرض. على الطرف الآخر من معبر الموت يتنفس العابرون الصعداء في حياة جديدة كتبت لهم، ولا أحد يدرك مرارتها سوى السوريون ذاتهم، حيث بات لديهم اليوم العشرات من الحكايا التي سيروونها لأجيالهم القادمة، كي يدركوا الثمن الذي بذلوه في إسقاط طاغيتهم.

تحت خط الفقر بكثير

عارف حمزة

كنتُ أظنّ أنّ فقراء أفريقيا يتضوّرون في انتظار الرحمة، تحت سياط شمس أفريقيا المداريّة، وسياط أمطارها المداريّة القويّة، إلى أن ذهبنا إلى جنوب الحسكة، حيث وجدنا هناك أطفالاً ببطون منتفخة، وينظرون إلينا بعيون بقر وحشيّ. حدث ذلك في عام ٢٠٠٢ عندما جاءت مجموعة من منظمة الأغذية العالمية و«اليونيسيف» للاطمئنان على خطة توزيع السلات الغذائيّة في منطقة «جنوب الرد» التابعة لمحافظة الحسكة، حيث توجد قرى فقيرة جداً هناك، ولا توجد لديهم أدنى الخدمات، التي يُمكن المحافظة فيها على كرامة حيوانات الرعي حتى! وكنّا كمتطوّعين نذهب معهم، للمرّة الأولى، بعد ستة أشهر من بدء البرنامج الإغاثي في توزيع عشرين كيلو طحين وعشرين كيلو أرز وعشرة كيلوات من السكر وعشرة ربطات من المعكرونة وسمن وزيت كسلة غذائيّة شهريّة كافية لكل عائلة، لنكتشف بأنّ المفرزة الأمنيّة، المتواجدة هناك للحفاظ على اسم الدولة، كأوّل الخدمات الأبديّة حتّى قبل وصول الكهرباء والمدارس والصرف الصحّي، قد وزّعت في الأشهر الست الماضية كيلو طحين وكيلو رز ونصف كيلو سكر شهريًا فقط لكل عائلة!.

لذلك أسبنا بالذعر عندما كادت الناس أن تقبّل أيادينا ونحن نوزّع عليهم تلك الكميات الضخمة، التي كان رجال الأمن يسرقونها من أفواههم، بلا أدنى شعور بحاجة أولئك الفقراء. كيف كان يصل بهم الأمر لسرقة طعام الفقير؟ وعندما مات الأطفال من الجوع، كيف لم يتحرّك فيهم ضمير واحد لإخراج حليب الأطفال المسروقة لإنقاذ حياة بقيّة الأطفال الفقراء، الذين كانوا لا يتأخرون عن اللحاق بأقرانهم. ثمّ إذا تطوّع الكبار لسلوك طريق الجريمة، من أجل إنقاذ حياة عائلاتهم، وفق تدريبات الأحقاد على كلّ شيء، تنزل بهم أقصى العقوبات، لمجرّد أنّهم قلّدوا رجال الأمن.

الذين لم يُحاسبهم أحد على أفعالهم الشنيعة تلك؟

بكت السيبة الألمانيّة عندما علمت أنّ جلّ الغذاء الذي يتناوله الأطفال وعائلاتهم هناك، هو الخبز والشاي. ولم تتابع أسئلتها حول ضعف الأطفال الرضّع، وانتفاخ بطونهم بشكل واضح، عندما اكتشفت، بنظرة خبيرة منها، منها ضمور الأشداء لدى الأمهات بسبب الجوع الشديد. السيبة الألمانيّة بكت، بينما أبطال المفرزة الأمنيّة كانوا يتابعون حساباتهم في عروق أولئك الفقراء.

كنا نشتري من أكشاك المدينة الجامعية في حلب علب تونا كبيرة مكتوب عليها «هدية من طلاب جامعات الدانمرك إلى طلاب جامعة حلب!». كنا فقراء حتّى في جامعاتنا، يا إلهي. وكانوا يشحذون باسمنا وعلى حسابنا في أرجاء المعمورة، ثمّ يبيعون هدايا الفقراء تلك لأولئك الفقراء. في هذه الحالة كان كبار الوزراء يُقلّدون أبناءهم في المفارز الأمنيّة في نهب الشعب، والحطّ من قدره.

ثمّ جاءت هذه الحرب الشرسة على الشعب سريعاً، وصارت القنوات الحكوميّة تتبجّح بأنّ الحكومة توزّع آلاف السلات الغذائيّة على المواطنين في المناطق المنكوبة، بينما كانت تصل من الخارج وليس من الحكومة، بعد نهب الكثير منها، وأخذ العمولات من المنظمات كي تسمح لها بالوصول لفقرائها من المواطنين!!. وكان الشرط الأكبر من تلك المنظمات عدم إشراف «الهلال الأحمر السوري» على تلك الإغاثات، بسبب السمعة السيّئة، ويا للأسف، في كونها منظمة حكوميّة، غير مستقلة، مرتبطة بالأجهزة الأمنيّة مباشرة. وكذلك بسبب السرقات والأخطاء العمليّة في التجارب السابقة. وبسبب الرفض المتواصل من الحكومة السوريّة لهذا الشرط، تمّ الرضوخ من قبل تلك المنظمات التي كانت تفكّر بالفقراء أكثر من

خوف الحكومة الوطنيّة عليهم!

تقول المنظمات ذات الصلة بأنّ نصف الشعب السوري صار تحت خط الفقر، وهذا خطأ جسيم؛ لأنّ هذه النسبة، أو قريباً منها، كانت تحت خط الفقر منذ عشرات السنين، مع تعاظم منظومة الفساد في البلاد، بينما صار أكثر من ثلثي الشعب السوري، بعد هذه الأشهر الطويلة من الحرب على جميع الأصعدة، تحت خط الفقر بكثير، فعند قصف منطقة بالمدفعية والطيران لم يكن لدى كثير من العائلات ثمن إيجار حافلة للنجاة بأرواحهم!. الى هذا الحدّ وصل الضنك على الشعب. ففي الوقت الذي هربت العائلات من المدن والمناطق المنكوبة بمدّخرات حياتهم، ثمّ نهبهم من قبل عناصر الحواجز والشبّيحة، فمضوا في طريق النجاة بجيوب فارغة، ثمّ سيجهدون في أماكن النزوح كي لا يبيعوا أطفالهم، أو أجسادهم، من أجل لقمة العيش. وإذا عادوا الى بيوتهم سيجدونها مدمّرة، أو منهوبة، ليبدأوا حياتهم، إن بقوا أحياء بالصدفة، من تحت الصفر بكثير أيضاً.

ثمّ تطوّرت الأمور لجعل مناطق النزوح نفسها، التي لم تتعرض للدمار الشامل بعد، وكانتقام من النازحين ومستقبليهم، منطقة غلاء فاحش، بتضافر جهود التجارة السوداء، وامتناع الحكومة عن التفكير بالشعب. وليس سراً أنّ كبار التجّار، ومستوردي المواد الغذائيّة والطبيّة والعسكريّة، هم من البطانة الحاكمة، وهم من يلعبون بالليرة والدولار، في تهديد واضح لتدمير الشعب السوري، بتلثيه على الأقل في الباطن، وليس الاقتصاد السوري كما هو الواضح في الظاهر؛ لأنه أصلاً لم يكن هناك اقتصاد سوريّ بالمعنى الحقيقيّ للمصطلح الاقتصاديّ؛ طالما كان الأمر مبنيًا على براعة الناهبين والفاسدين، كأشخاص أكبر من الدولة نفسها، ولم يكن الأمر متعلقاً بالخطط أو برامج التنمية.

ضد التيار

مريم صالح

ترجمة: كرم نشار

كل يوم سبت، يجتمع عدد من النساء في بلدة سلمية، غرب سورية، لمناقشة أحداث الأسبوع المنصرم في البلاد وما يتعلق تحديداً بالانتفاضة الشعبية ضد حكم الرئيس بشار الأسد. تقوم المجموعة بتحرير بيان سياسي يعبّر عن مواقفها، يطبعونه ويوزعونه في شوارع المدينة، ويقومون بنشره على صفحات الإنترنت ليراه العالم.

في إحدى اعتصاماتهم الشهر الماضي، كانت فرح واحدة من عشر نساء ممن قرأنا بيانا يعبر عن تضامنهن مع المعتقلات السياسيات في سجن عدرا. فالسجينات كنّ قد أعلنّ مؤخرا عن بدئهم بإضراب مفتوح عن الطعام حتى الحصول على محاكمات عادلة. في الأسبوع السابق، طالبت معتصمات السلمية بدولة مدنية ديمقراطية.

تقيم فرح -أخفينا اسمها الكامل لضرورات أمنية- في دمشق، لكنها تعود إلى مدينتها سلمية كل يوم خميس، الجمعة بعد الظهر تعتصم مع حوالي خمسين معارضاً في مظاهرة أسبوعية مناهضة لنظام بشار الأسد. أما أيام السبت فتجتمع مع المعارضة النسائية قبل أن تعود إلى بيتها في العاصمة.

حراك نساء السلمية فريد، على حدّ قول فرح، لأن الاعتصامات والمظاهرات وغيرها من أشكال النضال السلمي لم تتوقف بالرغم من سيطرة النظام الصارمة على المدينة. وحتى عندما تراجع الحراك الثوري هناك بشكل عام، بقيت النساء مصرّات على الخروج وإثارة حماسة الشباب ليشاركوهم.

حاول مؤيدو النظام الحالي تصوير الثورة منذ بدايتها بصورة طائفية، كصراع سني شيعي، لكن أهالي سلمية، المنتمين بغالبيتهم إلى الطائفة الإسماعيلية، يدحضون تلك المزاعم. فالإسماعيلية مذهب شيعي، لكن أبناء الطائفة انخرطوا في حركة الاحتجاج الشعبية بعد مرور عشرة أيام فقط على اندلاعها في منتصف آذار ٢٠١١. وبالرغم من أن المدينة نادراً ما تحصل على تغطية إعلامية ضمن أخبار الأحداث السورية الكثيفة، فإن أبناءها لم يتوقفوا عن التظاهر وتأييد الثورة.

شاركت نساء سلمية في الحراك منذ بدايته أيضاً. فرح، التي تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، كانت واحدة من خمس نساء شاركن في اعتصام الخامس والعشرين من آذار عام ٢٠١١. المظاهرات كبرت أسبوعاً بعد أسبوع، ومع الزمن بدأت النساء تعرفن بعضهن جيداً، بعد ثلاثة أشهر من بدء الثورة، بدأن بالاجتماع بشكل مستقل وأسسن هيئة نسائية قمن من خلالها بتنظيم عدة نشاطات مناهضة للنظام.

عندما بدأ اللاجئون بالتوافد على سلمية من مدينتي حمص وحماة، قامت النساء بتنظيم حملات الإغاثة، بما فيها تأمين السكن والسلل الغذائية للوافدين الجديد. قاموا أيضاً بالتواصل مع الكثير من الناشطات في مختلف المناطق، لكنهم فشلوا في تأسيس تجمع وطني شامل للنساء السوريات. بحسب فرح، تزايد العنف في البلاد والنزوح القسري لعدد كبير من الناس كانا من أسباب الفشل. فقد أصبح التنسيق بين المناطق بالغ الصعوبة.

تعتقد فرح أن نساء سلمية لعبن دوراً قيادياً على صعيد الحراك النسائي في الثورة السورية. فقد كنّ أول النساء المشاركات في المظاهرات، وأول من أسس هيئة نسائية ثورية. نشاطاتهم استمرت طيلة الأشهر الثمانية والعشرين الماضية، بقيت فرح ناشطة في دمشق وسلمية بنفس الوقت. التمريض حسب قولها هو المجال الوحيد الذي لا تزال نساء سلمية مقصرات تجاهه. فالنساء في باقي المناطق تحولنا في كثير من الأحيان إلى ممرضات لمعالجة الجرحى والمصابين. أما في سلمية فلا يوجد ممرضات حتى الآن. لسنا بحاجة إلى التمريض في الوقت الحالي، تقول فرح. فالمدينة لا تزال بأمان. إصرار فرح على أمان مدينة سلمية قد يبدو مفاجئا، فالجانب المسلح للثورة السورية طغى على بدايتها السلمية.

التتمة في الصفحة ٤..

«إنجازات» بشار الأسد التي تتكلم عن نفسها

دلال البزري

الصورة عمرها بضعة أيام. يظهر فيها بشار الأسد مصافحاً جندياً من الجيش. وذلك في زيارة له الى بلدة داريا المنكوبة، بمناسبة عيد الجيش السوري. خلف الصورة عمارة نصف مدمّرة. على يمينها بقايا دمار قديم وسيارة محترقة. وعلى يسارها عمارة مدمرة أيضاً وحولها كتل من الحجارة المتناثرة. الأرض التي يقف عليها بشار أصبحت ترابية. اختفى الإسفلت عنها. وحولها وعليها كومات من التراب والحجارة نبتَ فوقهم عشب بري أخذ باليباس. فيما لا بشر غير بشار والجندي السعيد بمصافحته أمام الكاميرا. لا بشر ولا حركة لمخلوق. ربما كلاب تائهة وقطط تبحث عن طعامها في الجثث المنسية... أو هكذا تكاد الصورة تنطق به. فداريا بلدة مهجورة. لا إنس فيها ولا جن... كان يوسع صاحب العدسة ان يفذي صورته بتوسيع إطارها، أو بإسكانها بال. الجماهير المؤيدة العاشقة للرئيس. ولكن عينه البصيرة بدت وكأنها واعية لأخطار هذا التوسيع. فحصرت أضرار الصورة بأن ضيّقت إطارها بالقدر الممكن. فيما لم تستطع شيئا بالنسبة للبشر. لم يتمكن منظمو الصورة من جمع العدد اللازم من هذه «الجماهير» الزيارة ربما أتت على غفلة، في ظل الأجندة المزدحمة للرئيس، أو إن المصوّر لم يكن نبيها بما يكفي.

المهم انه أمام هذه الأطلال، كان على الأسد أن يقول كلمة، أن يعطي معنى للمشهد الذي يتوسطه. فماذا قال؟ قال حرفيا: «ان الإنجازات على الأرض تتكلم عن نفسها»، مضيفا، من دون خفر، انه «واثق من النصر».

ان أي شخص سوي سوف يقول لك بأن بشار هذا «يخرّف»، أو يهذي، أو يكذب، أو يلفق أو يمزح أو يعبث بمعاني كلمات مثل «الإنجازات»، أو «على الأرض»، أو «النصر». فالصورة تنطق بعكس ما يقوله بطلها. هل يعني بالانجازات كل هذا الخراب؟ هل يعني «على الارض» بأن هذا الخراب وهذه المدينة الشبحية هما مبشران بالانتصار؟ على أساس انه سوف يدخل التاريخ، أو «غينيس»، وهو وقوفه، بأرقام «قياسية» من القتل والخطف والتعذيب والسرقة والتدمير للعمار... الخ؟ أم ان معنى العبثي الظاهر يبطن معنى آخر، مخفي، أعمق، تريد الصورة أن تنكره، من دون أن تنجح في حجبه تماما؟

صحافي حاذق أراد، من غير قصد ربما، أن يوضح لنا معنى هذه «الانجازات» و«الانتصارات». فنقل إلينا معلومة مهمة من «مصادره»، وهي تقول بأن «الأمنيين» لاحظوا أخيراً عمليات «رصد إسرائيلية وأطلسية لتحركات الأسد»، ما دفع «الموالين بأمن الرئيس السوري ومستشاريهم (غير السوريين في بعض المرات) الى فرض خطط تقضي بعدم التحرّك في عدد من الأماكن الحساسة». لكن هذا لم يمنع الأسد من «إزعاج» الأمنيين في بعض التحركات ومخالفة نصائحهم». ومن بين هذه التحركات، او بالأحرى من بين هذه «المخالفات» التي طلب من الإعلام تغطيتها بالصورة، تلك الزيارة التي أنجزها الرئيس في داريا. فكانت الصورة وكان التصريح، الذي لا يظهر شيئا، حسب هذا التفسير، قدر إظهاره لـ«الانجازات». هل فهمنا؟ هل أدركنا معنى الإنجاز الجوهري الذي حققه الأسد بأنه شرب حليب السباع؟ فتجرأ، على نصائح مستشاريه السوريين وغير السوريين بالتجوّل في البلاد التي يعشقه أهلها؟ هل فهمنا؟...

ولكن ما عليك من هذه الدعاوي الباعثة على السخرية... وأدخل في الجد، لن تبحث كثيرا، لو أردتَ أن تجد ما يفيد «سوء التفاهم» هذا بيننا وبين معاني هذه الصورة. أنظر قريبا منك، وترى «إنتصارا» ممائلا و«إنجازات» شبيهة، في تلك التي تكبدناها في تموز ٢٠٠٦، عندما وقف حسن نصر الله على دمار حربها، وأعلن عن «إنتصاره التاريخي الإلهي الإستراتيجي» على اسرائيل. صحيح ان هذا الإعلان أعدت له عقول إعلامية «ذكية» إستطاعت ان تفعل فعلها أكثر مما تمكن منه مصوّر بشار، بل كل جهازه الاعلامي «الرسمي». ولكن بعد حين قليل، بانت ترجمة هذا النصر على الأرض، من انه نصر على اللبنانيين وغلبة على شؤونهم. وتنكر فجّ لكل الخسائر الكبيرة التي مني بها لبنان واللبنانيون من جرائها. وكأن القتلى والدمار والخراب وتصدع لبنان نفسه.... ثمن «رخيص» لهذا الإنتصار. يقيض الحزب مقابله أغلى ما يشتهيه: الحفاظ على زينته، سلاحه، «فدى صبّاتك... يا....!».

من غير العجيب ان يتحول بعد ذلك سلاح «الانتصار على العدو» الى سلاح الدفاع عن نظام بشار الأسد. فكلاهما يضمر المعنى نفسه لـ«الإنتصار»: الحليف والرديف لا يبصران تلال الخراب والفراغ اللذين يتسبب بهما هذا الإنتصار. لا يريان ذلك. انهم الآن بصدد شيء واحد، هو «إنقاذ» النظام من السقوط. الهدف ليس إنقاذ البلاد، بل النظام. من أجله ترخص كل الاشياء. كما كان في السابق، عندما كان يسأل النظام عن معنى «نجاحاته»، كان يهمس في الآذان، بأنه، بصرف النظر عن القمع والفساد والتعطل ونهب البلاد، فان نظامه «ناجح». والدليل على ذلك انه «باقٍ». النجاح هو البقاء في السلطة، البقاء بالامساك بمصائر الخليقة. كل ما عدا ذلك هراء.

اذن، عندما يتكلم النظام وحلفاؤه المانعون عن إنجازات على الأرض وعن إنتصارات، لمجرد انهم قضوا على الحجر والبشر في المناطق التي «حرروها» بأطنان القنابل والبراميل والصواريخ... فعليك ان تتصور الباقي، الإعلان النهائي عن النصر الأسدي، إذا حانت ساعته. سوف يكون على بلاد مدماة، يترك بعضها للأموات ويأخذ قطعة منها يتحصن بدورعه البشرية من الذين سوف يستمر فوق رأسهم حكمه الخالد، وهذا واحد من السيناريوات...

وسوف يصدح بعد ذلك بأنه إنما «أنجز» و«انتصر». كما قال في داريا، كما سبق وقال في بابا عمرو. ولكن على ماذا؟

بالمقابل، مقابل هذا التهافت الواضح لمعنى الإنتصار عند بشار الأسد، ماذا في جعبة الثوار من تصور لمعنى انتصارهم؟

أول ما يدر عن هذه المعارضة، هو انها، مثل عدوها بشار، كانت تستعجله بلهفة عارمة، بعد شهرين أو ثلاث، سوف تنتصر... بعد هذه الواقعة العسكرية أو تلك، سوف يرحل بشار...

أجندة قوى المعارضة أيضا فيها إنتصار مستعجل. وتكبيرات الهية على كل ضربة صاروخ. عندما تصدرت صورة بشار وتصريحه أخبار البلاد، كانت هذه المعارضة تبدو أكثر تعقلا، ربما بسبب تراجعها على الارض. فـ«النجاحات العسكرية المبهرة» التي حققتها بشار بيّنت، مع غيره من المؤشرات، كم ان القتال سوف يطول. فأخذت المعارضة نفسا طويلا، ومدت أفقها نحو الأبعد... ولكن هل تعتبر هذه المعارضة المعنى الأخير المستخلص من تجارب المعارضة في ادارة المناطق المحررة؟ وهو بشي، حتى هذه اللحظة، بشيء من القرابة مع المعنى الأسدي للانتصار؟ أي التحكم أكثر من الادارة، الهيمنة أكثر من الحرية المنشودة، والخراب والقتل والترهيب، كديكور مقبول لإعلان الإنتصارات على الأرض.

تتمة: ضد التيار

مريم صالح

في آذار عام ٢٠١٢، سجّل المركز السوري لاحصاءات الثورة أكثر من ٧٠٠ مظاهرة أيام الجمعة. أما في الصيف الحالي، فقد تناقص هذا الرقم إلى ما دون المئة مظاهرة. حسب الأمم المتحدة، بلغ عدد ضحايا الصراع في سوريا مئة ألف. هناك أكثر من أربعة ملايين نازح داخل البلاد، بما فيهم اللاجئون في سلمية. كما أن أجزاء كثيرة من البلاد باتت أشبه بكومات الركام. كل هذه العوامل أدت إلى تراجع النضال المدني، لكن سلمية لم تستسلم. وفي مظاهراتها الأسبوعية، باتت النساء تشكل ما يقارب نصف عدد المتظاهرين.

«النساء كانوا من أبقى شعلة الاحتجاج متوقدة بعدما بدأت قوى الأمن بحملتها القمعية»، يقول أبو خالد. أحد نشطاء سلمية والبالغ من العمر ستة وعشرين عاما. «كنا نراهم يخرجون للتظاهر، فنتحمس لمشاركتهم».

تعترف فرح أن أمان سلمية النسبي بالمقارنة مع المدن السورية الأخرى ساعد على الحفاظ على مقاومتها المدنية. فالمدينة حتى الآن لم تتعرض لهجوم عنيف من قبل قوى النظام، لأنها بالنسبة له لا تؤوي المقاومة المسلحة. عُرف عن قوى الأسد أنها تستهدف المناطق المدنية الحاضنة للمقاتلين بالقصف العنيف، ولكن في حين حمل الكثير من رجال سلمية السلاح، فقد شاركوا كتائب تنشط خارج المدينة وذلك كي يحموها قدر الإمكان من الدمار الذي حل بالقرى المجاورة.

بالرغم من ذلك لم يخل الحراك النسائي في سلمية من المشاكل. تتذكر فرح حادثة معينة حصلت بعد حوالي سنة بعد انطلاق الثورة. «كنا واقفين في الساحة الرئيسية، ونرفع اللافتات المطالبة بالحرية للمعتقلات السياسيات عندما قدم مدير الناحية وصفع احدى الفتيات... قامت الأخيرة بصفعه بالمقابل، فهجم الشبيحة علينا وهاجمناهم نحن أيضاً بدورنا».

مع ازدياد التوتر الأمني في المدينة، حسب أبو خالد، بدأ الرجال يشعرون بالخوف على النساء وطلبوا منهم التوقف عن الخروج إلى الشارع. لا يزال أبو خالد يؤيد مشاركة النساء في المظاهرات بشكل عام، وإن كان لا يخفي قلقه على أهله من مغادرة البلاد ومن مخاطر العودة. حضور النساء المتعلمات والعلمانيات الساعيات نحو مجتمع مدني ثمين جداً، حسب تعبيره. سلمية هي إحدى المناطق القليلة التي لا تزال النساء تشارك في المظاهرات فيها وفي العمل الميداني بشكل عام.

معلمة أبو خالد السابقة في المدرسة الثانوية هي اليوم إحدى تلك النساء المتعلمات. اسمها الحركي أورنينا، وهي تعتقد أن نساء سلمية هنّ في طليعة المعارضة النسائية في البلاد. بسبب نسبة التعليم العالية بينهم وكونهم بالأساس عناصر فاعلين في مجتمعهم.

«حاول الكثيرون ثنيي عن المشاركة في الثورة خوفاً عليّ من الاعتقال... الجميع يعرف ما يحصل للمعتقلات.. تقول أورنينا. «ولكني أصرّ أنني سأبقى حرة بالرغم من كل شيء... قامت قوى الأمن بضربي، لكنهم لن يتمكنوا من إسكاتي».

ابنة أورنينا تعرضت مرة للاعتقال من قبل قوى النظام، كما أن والدة فرح، البالغة من العمر ثلاثة وستين عاما، دخلت السجن أيضاً في شهر آذار الماضي بسبب قيادتها لاحدى المظاهرات. وبقيت محتجزة لمدة أسبوع تعرضت خلاله للتعنيف. تفتخر فرح أنها تنحدر من عائلة سياسية؛ والدها كان معتقلاً سياسياً في عهد حافظ الأسد لمرتين، واعتقل أكثر من اثنتي عشرة مرة خلال الثورة، وهو مستمر في تشجيع زوجته على المشاركة في المظاهرات.

جوناثان ألبيري:
٨١ يوما في الأسر

جوزف الحاج

خطف في التاسع والعشرين من نيسان وأطلق في أواخر تموز الماضي. ٨١ يوما قضاها جوناثان مصور وكالة «بولاريس» في الأسر مع معارضين سوريين.

باضطراب، يروي قصة خطفه. مر كل شيء بسلام. لا معاناة جسدية، بل حالة نفسية تركت أثرها عليه، «البداية من بيروت السورية التي وصلت إليها قبل ١٥ يوما. قمت بتغطياتي الصحافية من دون مشاكل. كنت مع الثوار، وتحديدا مع «الجيش الحر» الذي تربطني علاقات بالكثير منهم. كنت وحيدا مثل عادتي، فأنا أرغب العمل وحيدا. المنطقة خطرة، لم يهتم مصور أو صحافي بتغطية ما يجري فيها، وقريبة من العاصمة دمشق».

كانت رحلته الثالثة إلى سوريا. خطط لها كي لا تستمر لأكثر من عشرة أيام «لكنني كنت ضحية خدعة من الدليل». في ٢٩ من نيسان الماضي، قال لي بعض الثوار بأننا سنقابل فصيلا آخر على خطوط التماس الجنوبية القريبة من العاصمة. هناك نصب لي الكمين. سعدنا في سيارة رباعية الدفع، أنا ودليلي وجنديين. سلكنا طريقا أوصلتنا إلى نقطة تفتيش حيث أنزلني مقنعون، طلبوا مني أن أركع وأوحوا لي بأنهم يريدون تصفيتي. عصبوا عيني وأطلقوا النار قربي. أفرغوا جيوبي، أخذوا مني كل ما كنت أحمله. لم يعاملوني بقسوة بعد ذلك. لكنني كنت مقيدا. أرادوا فقط إخافتي كي لا أهرب. ثم وضعوني بمعزل عن الآخرين».

بقي لثلاثة أسابيع في منزل يقع في منطقة تتعرض لغارات جوية لا تتوقف. «في يوم أطلق أحدهم النار علي لأنني لم أستأذن أحدا للذهاب إلى المرحاض. حضر الآخرون وأبعدوه».

بعد فترة، حضر أفراد أمنيون للتحقيق معي بتهمة التعامل مع المخابرات الأميركية. بعد ثلاث جلسات من التحقيق هددوني بالاعدام. كانت العديد من المجموعات المعارضة تعبر المكان دون أن تعلم بوجودي إذا كان الخاطفون يحجبونني عن الأنظار».

بعد ثلاثة أسابيع إنتقل الجميع إلى مكان آخر، إلى منزل فسيح. سمح له بالتنقل ضمن الأسوار، لكن الأوضاع ساءت، وازداد التوتر، «تمتعت بحرية أكبر. المنزل يطل على منظر يديع لجهة واد متصل بحدود لبنان غربا. تقربت من بعض العناصر، إعتمدت على مساعدتهم في المطبخ. طلبوا مني تعليمهم كيفية إستعمال جهاز الكشف عن المعادن، لأن في المنطقة آثار قديمة كانوا ينقبون فيها ويستخرجون عملات قديمة يبيعونها في أسواق قريبة. رافقتهم في إحدى المرات إلى أطلال تعود إلى أكثر من أربعة آلاف عام حيث عثرنا على قطع نقدية قيمة. مرة أخرى طلبوا مني أن أقرأ بعض التعليمات المدونة على معدات حربية روسية، فقلت لهم إنني لست ملما بهذه اللغة».

كان دائم الخوف من نهاية مأسوية. كلما طالت مدة خطفه «كم من الوقت سأبقى هنا؟ كلما فكرت بالهرب ونسجت خططا في رأسي، أصاب بالإعياء وأغط في نوم عميق».

وسط كل ذلك مرت لحظات مضحكة، «عندما أخبرتهم بأنني سباح جيد، طلبوا مني أن أعلم قائدهم السباحة، فسارعوا إلى ملء المسبح بمياه باردة. بعد لحظات وجدت نفسي أمسك بالقائد خشية أن يغرق. في أحيان كثيرة كانوا يمزحون معي ويسددون السلاح نحوي».

إمتدت الإقامة في هذا المنزل شهرين. علما أنه تعرض لهجمات متواصلة من جانب حزب الله الذي كانت مواقعه تبعد أقل من كيلومتر واحد. تعقد الوضع كثيرا، لا لكونه مخطوفا يجهل موعد إطلاقه، بل لخشيته من إحتمال إصابته من جراء القصف بالصواريخ التي تقترب أكثر، «أحسست بانهيار شديد. فكرت بالهرب أو بالإنتحار. تذكرت أنني واجهت مخاطر القصف في صراعات وحروب صورتها سابقا، أفغانستان، الشيشان، جيورجيا... هنا يختلف الأمر. أنا معتقل، إذا أنا هدف».

لا يرغب ألبيري الخوض في تفاصيل إطلاقه عبر دمشق «لا يفضل الأميركيون والفرنسيون ذلك. كل ما أستطيع قوله إن علاقاتي الجيدة في لبنان أثمرت في سوريا. عرفوا مكان وجودي وهوية الخاطفين. طمأنوا عائلتي، لذلك إستمر أبي ثلاثة أشهر ينكر إختطافي. كانت هنالك قلة تعرف أنني مخطوف».

عن بعض التفاصيل التي رافقت عملية إطلاقه، يبوح، «أحد السوريين المقربين من النظام، وهو برلماني ورجل أعمال، علم بوجودي صدفة. إعترف الخاطفون بوجود مصور فرنسي لديهم، صوروني، ثم أطلقوني بعد ٤٨ ساعة. أعتقد أن مقايضة مع النظام أبرمت بشأن الإفراج عني».

مكان إطلاق ألبير حمل في منطقة «محايدة، حسب تعبيره، حيث يوجد العديد من الجواسيس من الجهتين «كنت أرتجف خوفا من أن أنتهي في سجون النظام. لكن مرافقي طمأنوني بأنني حر وفي الطريق إلى دمشق. لم أنق بكلامهم».

على طريق دمشق- حمص الواقعة تحت سيطرة النظام، أجبر على تبديل ملابسه وأعطي هوية مزورة. وطلب منه الصمت عند نقاط التفتيش. يصل ألبيري العاصمة تحت القصف، وتحديدا إلى فيلا في حي سكني لم تصله الحرب بعد. يملكها رجل الأعمال الذي ذكره. كان هناك لبناني لم أذكر إسمه. جلس مع بعض المرافقين الذين كانوا يشاهدون التلفزيون. قدموا له ملابس جديدة وهاتفا محمولا. خابر صديقا لإبلاغ وطمأنة عائلته. تجول في دمشق، ولدى عودته أكد له رجل الأعمال بأنه دبر إنتقاله إلى لبنان.

عند الحدود اللبنانية، وضعه مرافقوه في صندوق السيارة. في بيروت اقتيد إلى شقة، غادرها في غفلة عن مرافقيه، «خابرت السفارة الفرنسية وانتهى كل شيء». ختم ألبيري.

ألبيري من مواليد باريس ١٩٧٩. إنتقل إلى الولايات المتحدة في ١٩٩٣. درس تاريخ القرون الوسطى في جامعة شيكاغو، وعمل في الصحافة المحلية. في العام ٢٠٠١ حقق أول مواضيعه الفوتوغرافية عن جنوب القوقاز. في ٢٠٠٣ صور في الكونغو تحقيقات مولتها وكالة «غيتي إيماج». تنقل في وظائف عديدة منها مسؤول إعداد الصحفات في «الفيغارو»، «أميركان فوتو»، وصحف ومجلات أميركية أخرى.

اليوم، يعمل مع «بولاريس إيماجز»، ويصور الموضة لحساب «إيل» الفرنسية، وبعض المصممين. يحضر كتابا عن المجازين القدامى في الحرب العالمية الثانية. نشرت أعماله في الصحافة العالمية.

يقول ألبيري، «لقراراتي علاقة بالتاريخ». بعد نجاته من القصف في جيورجيا، ومن كمين في النيبال شهد فيه مقتل كل من كان معه، بقي وفيا لعمله. بعد شهر واحد رافق الفرقة الأجنبية الفرنسية إلى افغانستان. بعد كل مهمة يقول لنفسه، «إنها الأخيرة». وهكذا!

يستعجل ألبيري عودته لمتابعة عمله، حتى في ظل الحروب، «صورت خمسة عشر صراعا وحربا منذ ٢٠٠٤. الحرب تنساها بعد لحظات. عودتي إلى سوريا ليست واردة. لن أحظى بهذه النعمة مرتين. أرغب في تنفيذ مواضيع بدأت تحقيق أحدها وهو عن النساء المسلمات في الولايات المتحدة».

مرت من هنا وأخذت كل شيء

عمر ديب

هناك في البعيد، شعوب سرقت أحلامهم دبابة حاقدة، وكسرت القذائف بيوتهم وذاكرتهم. وحدها هذي الشعوب تكسر أقلام التاريخ وتبعثر كل أرقامه، وتمحي الأجزاء التي تريد وتكتب قدرها بالخط الكوفي كما يحلو لها. فقط لأن حربا مرت في بلادهم، سيكتبون ما يحلو لهم.

ربما لأن قناصا شارد الذهن في حبيبته نجا الكثيرون من الموت. ربما لأن عاملا في مصانع السلاح السوفييتي نسي أن يضع قنبلا صاعقا في حشوة قذيفة، فكتبت حياة جديدة لضحكات أطفال المدينة. ربما لأن بندقية معطوبة على حاجز ما، ما زلت أنا على قيد الحياة.

هنا في قلب الدمار يتساءل رجل عجوز، ما قيمتي دون أرضي! وتتساءل فتاة بضفيرتين عن حبيب غائب منذ أشهر. وقد نسيت خلخالها الذهبي في ساحة المدينة، على ضفة نهر يلعب طفل صغير، يسترق الوقت بين قذيفتين، ويرسم حلما بين انفجارين. هناك في البعيد موجة لم يلاطم خدها الريح واحدى الحبيبات غاضبة لأن حبيبها الميت لا يرد على هاتفه وأم تودع شهيدها الرابع حين أخطأ القناص بأصابة الرصيف.

وحين تأخذ الحرب إجازتها الأسبوعية ستعرف أن الموت اختار الناس الخطأ لأجل القضية الخطأ، في المكان الخطأ والوقت الخطأ. ستعرف أن تجار الحروب وحدهم من يستفيدون من كل نقطة دم نزفت في بلاد الثورة والديكتاتور وأن أولئك الذين يصوغون الشعارات والمبادئ هم أول من يخون الشعارات، ويكفر بالمبادئ سيدخلونك المعتقل ويسلمون منك بطلا سيدخلونك في حرب ليست حربك، ويعطونك سلاحا لتقتل به ثم سيجعلونك لاجئا ويقبضون ثمن لجوئك سيصنعون منك نجما ويقبضون ثمن سطوع هذا النجم وحين يسألونك عن وجهك المتعب، قل لهم أنا لست متعبا، لكني من بلاد أنهكتها الحروب، كل هذا لأن حربا تجري، وهناك من يريد أن يعد الدولارات!

ستعرف فيما بعد أن الثورة الحقيقة لا تبدا بكتب ماركس ولينين، ولا تحتاج لمناضل بحجم غاندي أو غيفارا بل تبدأ من نفسك أنت، حين تقول لا لكل من يملي الأوامر.

لم يكن أحد يعرف ما كلفتنا هذه الحرب، كيف لهم أن يعرفوا وهم لم يدخلوها أصلا لا يوجد في الحرب أشخاص غير مصابين، سيصاب الجميع وسيخسر الجميع، لا رابح في بلاد الدماء والشهداء، والجروح في كل مكان، ستجرحك الحرب حتما، وستنزف في كل يوم من لا ينزف دما تنزف به الذكريات، فالحرب تسرق منك في كل لحظة، تسرق منك كل شيء دون أن تعرف، ليس الموت مشكلة لكن المشكلة الحقيقية أن تعيش مع الموت في كل لحظة وأن تتعثر به في كل الطرقات.

هنا في شوارع القرن الواحد والعشرين، في هذه المدينة التي يحيط بها الموت، يكفي أن تكون في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ، لتربح موتا سريعا، ربما أنت لم تربح شيئا وربما كنت أنت الشخص الخطأ، يكفي أن تعيش هذه الحرب لتعرف أن الموت قاعدة والحياة استثناء، يكفي أن تترك ذاكرتك في بيت مدمر لتعرف كيف تسرق دبابة حاقدة أحلام شخص، وطفولة آخر، يكفي أن تمشي في اتجاه حلمك وكل شاخصات الطريق تقول لك "لا رجوع إلى الوراء"

أسوأ ما في الحرب أنها تسرق منك في كل لحظة، تسرق ذاكرتك وتاريخك، وكل ما رسمته يوما على حائط المدرسة.

دون أن تنتبه هناك جزء منك يغادر العالم، وأجمل ما في الحرب أن تنتهي.

نعم لقد مرت الحرب من هنا، وأخذت معها كل شيء..

العيد في سوريا كالحب في زمن الكوليرا

سلام السعدي

أعياد كثيرة مرت على السوريين في ظل الثورة، وفي كل مرة، تسمع من يردد، "إنه العيد الأسوأ في تاريخنا". ثم يتضح لاحقا أن الأسوأ لم يأت بعد، وأن المسار الذي اتخذته الظروف الإنسانية والمعيشية يزداد انحدارا. لقد تلاشت مظاهر العيد تدريجيا عاما بعد آخر، وتكاد اليوم تغيب تماما.

التهمت الحواجز العسكرية والكتل الإسمنتية شوارع دمشق وساحاتها. وما كان في يوم ما "ساحة عيد" تفرش أرضها بـ "المراجيح" وتصدح فيها أصوات الأطفال، تحول اليوم إلى ساحة أمنية يحظر دخولها. ليس من الممكن أن يأخذ المجتمع المحلي على عاتقه، في كل منطقة، إقامة ساحة عيد للأطفال. فالدولة التي تضطلع بمهام كبرى كحماية أمن الوطن والمواطنين، هي من يحدد أيضا أين يجب أن يفرح الأطفال، كما تحدد نوعية وعدد وسائل اللعب. لذا، حددت محافظة دمشق تسعة مواقع يمكن إنشاء ساحة عيد فيها، وهي: ركن الدين، المزة، المهاجرين، برزة، ساروجة، الميدان، الدحاديل، دمر، كفرسوسة. أي الأماكن التي لا تزال فيها الدولة قادرة على بسط سيطرتها. وقالت أنها كلفت قسم الشرطة "بوضع دوريات ثابتة للوقوف على أمن الأطفال".

النظام لا يكتفي بتقييد إنشاء ساحات العيد في دمشق وحيث يسيطر، بل حتى في "المناطق المحررة"، يشرح أبو علي كيف باشر عدد من المجالس المحلية هناك إقامة ساحات عيد متواضعة بوسائل بدائية، إذ "تم صنع معظم المراجيح للأطفال بواسطة ألواح من الخشب والحبال، وبدرجة أقل من الحديد". ويضيف، "يمكننا إقامة ساحة العيد في أي مكان، ما يقيدنا فقط، هو الخشية من طائرات وقذائف النظام التي تزرع الموت حيث تحل".

لم تكن ساحات فرح الأطفال ما غاب أو شح هذا العام، بل كافة مظاهر العيد، وأهمها شراء الألبسة الجديدة "ثياب العيد"، والحلويات. إذ ارتفعت أسعارها بمعدل يراوح بين ١٠٠-٣٠٠ في المئة بحسب السوق وجودة المنتج. ويبرز كسبب رئيسي في ذلك، ارتفاع أسعار المواد الأولية عن العام الثالث بمعدل ١٠٠ في المئة. بالإضافة إلى إغلاق معظم مصانع الألبسة والأقمشة في حلب التي كانت توزع الجزء الأكبر من الإنتاج المحلي لكافة أنحاء سوريا.

وتبدو الحكومة منشغلة عن ضبط أسعار تلك السلع المرغوبة بشدة في هذه الأيام، وذلك برغم حديثها الدائم والمتكرر عن تسيير دوريات لرقابة الأسعار في شهر رمضان وقبيل حلول عيد الفطر، لكن دون جدوى. وفضلا عن ذريعة "الوضع الأمني" التقليدية والمستهلكة، وجدت الحكومة ذريعة جديدة عندما ادعت أن أولويات الرقابة لديها اليوم "تنصب على المواد الغذائية الأساسية، التي لا يفترض إهمالها عبر إشغال الدوريات بمراقبة هذه المنتجات". المقصود بـ "هذه المنتجات" كل من الألبسة والحلويات.

فكيف نطالب حكومة متخصصة بالتصدي لـ "القضايا الكبرى" أن تأبه بمثل "هذه المنتجات"؟.

في "المناطق المحررة"، يأخذ الناشطون على عاتقهم دور الدولة. وفيما تهتم تلك الأخيرة بالهدم والتخريب ونشر الموت والحزن، يحاول الناشطون رسم البسمة على وجوه الأطفال الشاحبة. يقول أبو علي، "نظمنا على مدار الأيام الماضية في عدة مدن حملة لشراء ثياب العيد للأطفال" ويضيف، "هذا هو العيد بالنسبة لنا، أن نقهر أقسى الظروف المعيشية، ونرسم البسمة والفرح، وقد نجحنا في ذلك".

غابت إذا طقوس العيد عن السوريين، لكن طقسا راسخا لم ينقطعوا عنه، بل ازدادوا تمسكا به بعد أن اكتسب القا استثنائيا في ظل الثورة، زيارة مقابر الموتى. إذ اعتاد السوريون في صباح كل عيد زيارة قبور أحبائهم، ليلقوا على أرواحهم السلام، ويكللوها بالورد ونبات "الآس". ومنذ اندلاع الثورة صار للزيارة قدسية خاصة، فالموتى الآن هم "الشهداء"، وزيارتهم راحة للنفس، والتزام أبدي بالقضية العادلة التي قضوا في سبيلها، الحياة الكريمة.

حلب ودمشق.. خيار وفقوس

نائل الحريري

في الوقت الذي تشهد فيه سوريا إحدى أكبر الأزمات الاقتصادية في تاريخها، لم تنكر التقارير الاقتصادية التي أصدرتها جهات عدة، بما فيها المكتب المركزي للإحصاء التابع للدولة، وجود تفاوت كبير في نسبة التضخم كانت أعلاها في حلب وأدناها في دمشق. الأمر الذي يعكس وجود عوامل هامة كثيرة تؤدي إلى تكريس توزيع غير عادل للموارد، وأهمها موارد الطاقة الكهربائية التي كانت السبب الأساسي في الافتراق المعيشي بين المحافظات السورية.

برغم التفاوت بين المحافظات السورية يمكن تلخيص المسألة في مجموعتين من المحافظات السورية، مجموعة تضم حلب وإدلب وحمص وحماه، ومجموعة أخرى تضم محافظات كدمشق والسويداء واللاذقية وطرطوس. المجموعة الأولى تقف في أعلى قائمة معدلات التضخم النسبية "حلب أولا ٣٧٥٪"، فيما المجموعة الثانية تتمتع بأقل نسبة تضخم "دمشق بالمركز الأخير ٢٥٠٪". وليس من الصدفة أن تكون المجموعة الأولى من المحافظات رازحة تحت وقع أزمة الطاقة الكهربائية بشكل مرعب، فيما لا تكاد المجموعة الثانية تعاني من مشكلة طاقة كهربائية أساسا.

ويكشف التباين بين التغذية الكهربائية في محافظة دمشق (انقطاع التيار بمعدل ساعتين يوميا) وبين محافظة حلب (انقطاع التيار بمعدل ١٥ ساعة يوميا) عن بعض تفاصيل الأزمة الاقتصادية، خصوصا بعد تخلي الدولة عن دعم المحروقات في تلك المحافظات المنسية تماما. في دمشق وبعد رفع الدعم جزئيا عن المحروقات وصل سعر ليتر البنزين إلى ٨٥ ليرة. في الوقت الذي يتأرجح فيه سعره في حلب بين ٤٠٠ - ٨٠٠ ليرة حسب التوافر في السوق السوداء. في الوقت الذي تعتمد فيه هذه المحافظات على التوليد الكهربائي بشكل مفرط.

مع هذا الواقع المؤسف، ظهر وزير الكهرباء السوري عماد خميس مؤخرا ليذكر بالضغط الكبير الذي تعانيه الدولة من جراء تأمين الطاقة الكهربائية، مؤكدا أن مؤشرات الاستهلاك السنوي من الطاقة لعامي ٢٠١٠ و٢٠١١ بلغت نحو ٥٠ مليار كيلو واط/ ساعة، وهو ما يحتاج إلى ١٠ ملايين طن مكافئ نفطي بتكلفة تقدر بنحو ٣٠٠ مليار سورية، أما في فترة الثورة فصرح أن كمية الطاقة نفسها تكلف الدولة حاليا نحو ١٣٨٠ مليار ليرة، الأمر الذي يتطلب تكثيف الجهود لمواجهة هذا الطلب المتزايد على الطاقة وترشيده إلى أقصى الحدود.

ووفق ما نقلته عنه وكالة الأنباء السورية الرسمية ("سانا") "يتكبد قطاع الكهرباء يوميا خسائر مالية، تقدر بملايين الليرات نتيجة الأعمال التخريبية في مناطق مختلفة، ما يشكل عبئا ماليا إضافيا على خزينة الدولة في ظل انعدام عملية الجباية في عدد من المناطق". لكنه مجددا يحيل المسألة إلى "التحديات الكبيرة التي يواجهها قطاع الكهرباء". ويبشر "بتمويل عدد من مشاريع الكهرباء من الاحتياطي النقدي بعد توقف البنوك الدولية عن تمويلها نتيجة العقوبات المفروضة على سوريا". وأن تكلفة إنتاج ١ كيلو واط/ ساعة تبلغ نحو ٢٥ ليرة سورية وتباع للمواطنين بسعر وسطي يقدر بنحو ٠,٨ ليرة سورية.

لكن ما يناقض هذا الكلام هو ما ذكرته مصادر مختلفة من النشطاء المعارضين في محافظات سورية عدة. فقد أكد أحد النشطاء في مدينة الرقة أن اليوم الأول الذي أعلن فيه تحرير المدينة شهد انقلابا حقيقيا في التغذية الكهربائية، من انقطاع يتجاوز ١٨ ساعة إلى انقطاع يقارب ٦ ساعات يومية وسطيا، وذلك بمجرد خروج المدينة من سيطرة النظام السوري. أما في حلب فقد قامت كتائب معارضة مسلحة منذ أشهر بمحاصرة محطة التوليد الحرارية من الجهات كافة مع بقاء الجيش السوري مشرفا عليها ومحاصرا في داخلها، وقامت بعقد اتفاق معه لتحييد المحطة الحرارية عن الصراع والإبقاء على التغذية الكهربائية. ويقول الناشط الإعلامي الحلبي رأفت الرفاعي أن التغذية الكهربائية للمدينة والريف تحسنت بشكل ملحوظ جدا بعد هذا الاتفاق، ما يدل على أن التلاعب بالطاقة الكهربائية ليس إلا مسألة سياسية يستخدمها النظام كوسيلة ضغط على هذه المناطق.

وفيما يصرح وزير الكهرباء أن نسبة التغذية الكهربائية في سورية وصلت إلى نحو ٩٩,٧٪، ويختصر المسألة بـ "التوعية بوسائل ترشيد استهلاك الطاقة". يبدو أن المسألة ليست إلا تراكما لسياسات اقتصادية مجحفة تتطلبها الضرورات الأمنية. وإذا كانت الدولة تعتبر كل هذه المحافظات "المنكوبة كهربائيا" ليست سوى ٠,٣٪ من سوريا ككل، فلا عجب أن ترافق الخطاب السياسي السلطوي محاولات التهرب من المسؤولية ودفن الرأس في الرمال.

من سخرية الأقدار أن النسبة المذكورة للتغذية الكهربائية ٩٩,٧٪ هي النسبة عينها للأصوات التي نالها الرئيس بشار الأسد في استفتاء تجديد البيعة الأخير العام ٢٠٠٧ تحت شعار حملته الانتخابية: منحبك. بمعنى ما، يبدو أن الـ ٠,٣٪ الباقية هي التي تعارض الأسد في رأيه، وتاليا تستحق هذا المصير. سياسة واضحة من حيث المبدأ، ولو أن النظام الحاكم يتهرب من تحديث الإحصائيات المتعلقة بشعبيته منذ ذلك الوقت.

إنهيار العقد الإجتماعي وتحلل الدولة السورية

سمير سليمان

قد لايعطي المستقبل تاريخا محددا لنهاية الدولة البعثية في سوريا، إذ سيكون إعلان موتها، على الأرجح، تدريجيا. ولكنه سيحفظ تاريخ ٨ / ٧ /٢٠١٣، باعتباره آخر مؤتمر للقيادة القطرية لحزب البعث، قبل تواري هذا الحزب وتلاشيه نهائيا.

ليس حزب البعث واجتماعاته ما يهمنا هنا، بل هو " العقد الاجتماعي السوري " في سورية خلال العهد البعثي " ، تشكله وتحولاته، ثم تحطمه بفعل الثورة. ثم دخوله أخيرا مرحلة التحلل الشامل، بسبب استطالة الصراع وانسداد آفاقه المنظورة، واشتداد العنف المادي والتمزق الاجتماعي، ثم الهجرة المكانية والثقافية لكتلة كبيرة من المجتمع السوري. وليس من مدخل لهذا الموضوع، سيكون أفضل من التأمل في ذلك الشعار الثلاثي المعلق فوق رؤوس البعثيين المجتمعين، "وحدة، حرية، اشتراكية" فهذا الشعار الأصيل للبعث، والذي استفرد باسمه حكم الدولة السورية لمدة نصف قرن بالتمام والكمال، كان الشعار التأسيسي للعقد الاجتماعي الذي يتهاوى الآن، بفعل الثورة من جهة، ونظام فاشي مجنون من جهة أخرى.

فبعد انقلاب ٨ آذار من العام ١٩٦٣ استقر العقد الاجتماعي السوري، كما نعلم جميعا، على نمط من الحكم الاستبدادي العسكري، القائم على الشرعية الثورية لأيديولوجيا البعث. وهي أيديولوجيا دوغمائية تمحورت حول قضية الوحدة العربية (وحدة) والقضية الفلسطينية (حرية – من الاستعمار)، وارتكزت طبقيا وسياسيا على الشرائح الدنيا والوسطى من البرجوازية الصغيرة، وعلى شريحة واسعة من الفلاحين الفقراء. وليس في كلامنا هذا شيء جديد، ولكن مانود إبرازه هنا، أن تلك الشرعية الثورية، المستندة إلى ماهو خارجي، فوق وطني (الوحدة العربية وقضية فلسطين)، قد اقصت الانتماء الوطني واضطهدته، ثقافيا وسياسيا. واعتبر الكلام في الوطنية السورية، والتغاير في لفظه ومدلوله لمديح النظام، شيئا يقارب "خيانة" الثورة وأهدافها في نظام البعث وإيديولوجيته القومية العربية. وأغرقت الدلالة التامة لكلمة "الوطنية" بكليتها في المسألة الفلسطينية كما يراها النظام.

تحت هذه السقيفة الإيديولوجية، اجتهد نظام البعث على فصل اية علاقة بين شرعية سلطته وبين مسألة التنمية في مختلف حقولها للمجتمع السياسي السوري. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل سارت الأمور عكسيا، وخصوصا بعد حرب تشرين فقد امتلك نظام الأسد الأب، بعد هذه الحرب، فائضا من الشرعية المستمدة من الخارج الاقليمي والدولي، مما سمح له بلا عناء، أن يعمل بدراية وتأني، على "هندسة اجتماعية" تربط مجمل الشرائح الاجتماعية بالدولة. في الوقت الذي كان يتم فيه تضخيم هذه الدولة ودمجها بالسلطة، مستفيدا ببراعة وموهبة، من تجارب أصدقائه الشيوعيين السابقين. وكان أحد أبرز أوجه مفاعيل هذه الهندسة، تغيير واستبدال الولاءات الأهلية القديمة، وتقويض الأشكال القديمة لعلاقات المجتمع الأهلي، ومنع نمو المجتمع المدني ونشاط السوق، وحشر كل أنشطة الشرائح الاجتماعية وعلاقاتها في أقنية ومسارب أجهزة الدولة وحزب البعث. في الوقت الذي أتم فيه دمج الدولة بالسلطة، لينتج مايصح تسميته الدولة –السلطة، أو الدولة السلطوية، أو، وهو الأصح، الدولة الأمنية. وفي النتيجة، تم مصادرة الوجود الاجتماعي والسياسي لجموع السوريين، كأفراد أو كجماعات، أو كعلاقات اجتماعية، ليوضع تحت هيمنة وإشراف مؤسسات الدولة الأمنية. ففي جميع المراحل العمرية بعد سنوات الطفولة الأولى، يجد الفرد السوري نفسه مقيدا بمؤسسات الدولة الأمنية هذه. فالمنظمات الطلائعية، والشبابية، والرياضية، والطلابية، والاتحادات المهنية، والنقابات، والمنظمات الشعبية، وقطاع الدولة، والتعيينات الوظيفية، والمؤسسات الثقافية والتعليمية، والمدارس، والجامعات، والمؤسسات الاستهلاكية والتموينية ..الخ كل هذا أبقى المجتمع السوري ضمن اقنية المراقبة والضبط والسيطرة. وطبعا لانتكلم هنا فقط عن الأجهزة المختصة بالضبط والسيطرة، أي الأجهزة الأمنية والحزبية، بل عن "الدولة الأمنية" بشموليتها، بكل مؤسساتها وهياكلها. بل "بمجتمعها" الذي يراقب ويضبط نفسه بنفسه. هذا ماكانه شكل "الاجتماع" الذي فرضه الأسد على السوريين بعصاه الغليظة.

ضمن هذه البنية الاجتماعية- السياسية المرتبطة وثيق الارتباط بالدولة السلطوية الأمنية، استقر نوع من العقد الاجتماعي الذي فرضته السلطة الأمنية، وقبله المجتمع السوري بامتعاض حينا، وبالتصفيق أحيانا. وقد عملت على سيادته منظومة أخطبوطيه متعددة العناصر من الفساد المالي والوظيفي، والرشوة الاجتماعية المعممة والاستبداد السياسي الثقيل، والقمع الأمني الدائم اليقظة، والانحطاط الأخلاقي الصريح، والبؤس الثقافي المموه. وأعطته أشكاله ومضامينه، وحددت آفاقه.

ايضا، لعب عامل رئيسي آخر، في ربط العقد الاجتماعي السوري بسلطة البعث، وبسلطة حافظ الأسد خصوصا، وبسلطة وريثه على الأخص. وتمثل هذا العامل في اندماج الشرائح البرجوازية السورية العليا في بنية هذه السلطة، سياسيا واقتصاديا وثقافيا. وفي ظهور شرائح جديدة منها في رحم هذه السلطة، في مرحلة لاحقة، مرحلة وريث الجمهورية.

فالبرجوازية السورية لم تخلق مجالها المستقل الخاص في عملية الإنتاج، والتسويق وتحقيق الأرباح، باستقلال عن الدولة السلطوية، بل كانت جزءا عضويا منها ضمن منظومة الفساد المالي والسياسي. وقد بدا هذا واضحا في العقد الأخير من العهد الأسدي، الذي بلغ فيه تحالف المال والسلطة حدا تخلى فيه عن تقديم ضمان الحد الأدنى للشرائح الاجتماعية الدنيا، واستباح نهب المال العام وقائض الدخل القومي. كما تخلى عن صيانة مؤسسات الدولة ذاتها، وعن استقلال القرار الوطني، والسيادة الوطنية، وعن حماية الطبقات الدنيا والوسطى لصالح الانفتاح المرتهن لايران في السياسة، ولتركيا في الاقتصاد. ليغدو الفساد "مؤسسة" تتغطى بهياكل الدولة السلطوية، وأسلوبا رئيسيا غير معلن للكسب، يمارس في أعلى مستويات القرار السياسي والاقتصادي والأمني، للاستيلاء على الثروة القومية. وبكلمة، لقد غدا العقد الاجتماعي السوري يعني بالنسبة لغالبية السوريين، القبول بهيمنة عصبوية الشكل لأقلية تحتكر السلطة والقرار في السياسة والاقتصاد، بتوسل العنف العاري لعموم المفقرين الرافضين، وبمشاركة الأقلية المستفيدة من منظومة الفساد والنهب وغياب المحاسبة.

وبالرغم من غياب الدراسات الاقتصادية التي تعطي فكرة دقيقة أو تقريبية للوضع الاقتصادي لطبقات المجتمع السوري، ودوره في الثورة. إلا أن ملاحظة تطابق جغرافيا الثورة منذ انطلاقتها، مع المستوى المعيشي المتدني للطبقات الاجتماعية الثائرة، يؤشر بوضوح أن ذات الشرائح الاجتماعية التي أسس عليها انقلاب البعث شرعيته، أي ابناء الريف والزراعة، والشرائح المفقرة من البرجوازية الصغيرة، هذه الشرائح هي ذاتها التي انتفضت على دولة البعث في طورها الأخير. لقد وقف البعث ضد ماكان تاريخيا جمهوره، بينما بقيت الطبقة البرجوازية العليا، والمتواجدة أساسا في دمشق وحلب، على تحالفها مع النظام طالما لم يتأكد سقوطه. أما الشرائح العليا من الطبقة الوسطى المدينية، فهي وإن لم تدعم النظام، إلا أنها بقيت خارج الحراك الثوري، باعتبار أن الثورة لم تقدم لها مايغريها، بل على العكس، فقد أثار الوجه الإسلامي للثورة خشيتها على نمط حياتها من مستقبل مجهول في حال سقط الأسد.

أما مؤيدو النظام من جمهور الطائفة العلوية والأقليات الأخرى، فلا يفسر موقفهم بوضعهم الإقتصادي والمعيشي، بل فقط بمحمولهم الإيديولوجي المصاب بالعمى والإنحلال بقوة السلطة. وقد تبدى ذلك منذ بداية الثورة، ففي حين كان "شباب الثورة" يقارعون النظام على أرضية سياسية تحررية، كان أتباع الأسد يقارعون الثورة بولاء إيديولوجي غير مبرر إقتصاديا للنظام. كان الوجه الطائفي أحد أوجهه الثانوية، وليس وجهه الوحيد، ولا الرئيسي. وهنا ، يمكن القول أيضا، أن الوجه الإسلامي المتشدد للمعارضة، قد أمدّهم ببيقينية حول صحة مايعتقدون. يقينية لم يكونوا يمتلكونها في بداية الثورة. وهذا موضوع يختلف عن موضوع "تطمين الأقليات" السخيف.

وقد ذهب مؤيدو الأسد هؤلاء، على غرار الشبيبة الهتلرية، حتى النهاية مع النظام في تحطيم المجتمع والدولة، بشرا وحجرا، بأسلوب فاشي لاسابق له في التاريخ. معلنين من جهتهم، وباستتباع حرفي للنظام، عن تحطيم العقد الاجتماعي الذي أسسته سلطة البعث الأسدي. ويبدو الآن، أن جميع أطراف الصراع، ولأسباب متناقضة تمام التناقض، تعمل على تحطيم ماكان يسمى، سورية الأسد.

لقد كان الشعب السوري ينتظر اللحظة المناسبة لإرساء عقد اجتماعي جديد، أكثر عدالة من ذلك الذي صممه الحكم الأسدي. وقد خاب حلمه أول مرة في ربيع دمشق، ثم خاب مرة أخرى في ارتدادات مقتل رفيق الحريري. وعندما خرج شباب الربيع العربي في سوريا ليحققوا حلمهم بأيديهم، سارع النظام قبلهم إلى تدمير ماكانوا يريدون تغييره. لقد دمر الأسد الابن خلال سنتين، بواسطة الطائرات والمجازر والبراميل المتفجرة، مابناه الأسد الأب وعمل عليه حزب البعث لمدة نصف قرن. ويبقى السؤال الصعب، ماهو العقد الاجتماعي الجديد الذي يأمله السوريون بعد سقوط الأسد؟

وباختصار، ماهو برنامج الثورة الحالي، لليوم التالي؟